أعمَالُ القلوبِ

خلق الله القلب فجعله ملكًا والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، قال ﷺ: « وَإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَة إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كُلّهُ، وَإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألا وَهِيَ القَلْبُ » متفق عليه. فهو محل الإيمان والتقوى، أو الكفر والنفاق والشرك؛ قال ﷺ: « التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - » مسلم.

والإيمان اعتقاد وقول وعمل، اعتقاد القلب وقول اللسان، وعمل القلب والجوارح. فالقلب يؤمن ويصدِّق، فينتجُ قولَ الشهادة على اللسان، ثم يعملِ القلبِ عمله من محبة وخوف ورجاء؛ فيتحرك اللسان ذِكْراً، وقراءة للقرآن، وتتحرك الجوارح سجوداً وركوعاً، وفعلاً للصالحات التي تقرب إلى الله ﷻ. فالجسد تابع للقلب فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجوه.

والمراد بالأعمال القلبية: هي الأعمال التي يكون محلها القلب، وترتبط به، وأعظمها الإيمان بالله ﷻ الذي يكون في القلب، ومنه التصديق الانقيادي والإقرار، هذا بالإضافة ما يقع في قلب العبد لربه من المحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والصبر، واليقين، والخشوع، وما إلى ذلك.

وكل عمل من أعمال القلب فإن ضده مرض من أمراض القلب؛ فالإخلاص ضده الرياء، واليقين ضده الشك، والمحبة ضدها البغض... وهكذا، وإذا غفلنا عن إصلاح قلوبنا تراكمت عليها الذنوب فأهلكتها قال ﷺ: « إنَّ العَبْدَ إذا أخْطَأَ خَطِيْئَةً نُكِتَ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ فَإنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَتْ فَإنْ عادَ زِيْدَ فِيْهَا وَإنْ عَادَ زِيْدَ فِيْهَا حَتَّى تَعْلو فِيْهِ فَهُوَ الرَّانُ الَّذِيْ ذَكَرَ الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » الترمذي. وقال ﷺ: « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ » مسلم.

والعبادات القلبية معرفتها أفرض وأهمّ على العبد من معرفة أعمال الجوارح، لأنها الأصل وأعمال الجوارح فرع عنها، ومكمّلة ومتمّمة وثمرة لها، قال ﷺ: « إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوْبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » مسلم. فالقلب هو محل العلم والتدبُّر والتفكر، ولذلك كان التفاضل بين الناس عند الله بحسب ما وقر في القلب من إيمان ويقين وإخلاص ونحو ذلك، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما سبقهم أبو بكر رضي الله عنه بصلاة ولا صوم، وإنما سبقهم بما وَقَرَ في قلبه من الإيمان.

وأعمال القلوب تفضل أعمال الجوارح من وجوه: ١) أن اختلال عبادة القلب قد يهدم عبادة الجوارح؛ كالرياء مع العمل. **٢)** أعمال القلب هي الأساس، فما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب فلا مؤاخذة عليها. **٣)** أنها سبب المراتب العالية في الجنة؛ كالزهد. **٤)** أنها أشق وأصعب من أعمال الجوارح، يقول ابن المنكدر رحمه الله: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت لي. **٥)** أنها أجمل أثراً؛ كالحب في الله. **٦)** أنها أعظم أجراً، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. **٧)** أنها محركة للجوارح. **٨)** أنها تُعَظِّم أجر عبادة الجوارح أو تقلله أو تحبطه؛ كالخشوع في الصلاة. **٩)** أنها قد تعوض عن عبادة الجوارح؛ كنيّة الصدقة مع عدم المال. **١٠)** أن أجرها ليس له حدٌّ؛ كالصبر. **١١)** أن أجرها يستمر مع توقف الجوارح أو عجزها عن العمل. **١٢)** أنها تكون قبل عمل الجوارح ومعها.

والقلب يمر بأحوال قبل أن تعمل الجوارح: ١) الهاجس: وهو الفكرة أول ما تُلْقَى في القلب. **٢) الخاطرة:** وهي ما يثبت فيه. **٣) حديث النفس:** وهو التردد هل يفعل أو يترك. **٤) الهم:** وهو أن يترجح عنده

الفعل. **٥) العزم:** وهو قوة القصد والجزم بالفعل. **فالثلاثة الأولى** لا أجر لها في الحسنة ولا إثم في المعصية، وأما **الهم**؛ فبالحسنة يكتب له حسنة وبالسيئة لا يكتب عليه سيئة. ثم الهم إذا صار عزماً؛ فإن كان على فعل حسنة أُجِرَ، وإن كان على فعل معصية أَثِمَ ولو لم يعمل؛ لأن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إذا التقى المسلمَان بسَيفيهما فالقاتلُ والمقتُولُ في النَّارِ، فقلت: يا رسول الله، هذَا القاتلُ فمَا بَالُ المقتُولِ؟ قالَ: إنهُ كَانَ حَرِيصًا علَى قتلِ صَاحِبِهِ** » البخاري.

فإنْ تَرَكَ المعصية بعد العزم على فعلها فهو على أربعة أقسام: **١) أن يتركها خوفاً من الله:** فهذا يؤجر. **٢) أن يتركها خوفاً من الناس:** فهذا يأثم لأن ترك المعصية عبادة ولا بد أن يكون لله. **٣) أن يتركها عجزاً دون أن يفعل الوسائل التي توصل إليها:** فهذا أيضاً يأثم بالنيّة الجازمة. **٤) أن يتركها عجزاً مع فعل الوسائل التي توصل إليها:** لكن لم يتحقق مراده؛ فهذا يكتب عليه إثم الفاعل التام؛ لأن الإرادة الجازمة التي أُتي معها بالممكن من العمل يجري صاحبها مجرى الفاعل التام - كما تقدّم في الحديث السابق- ومتى اقترن العمل بالهم فإنه يعاقب عليه سواء كان الفعل متأخراً أو متقدما، فمن فعل محرما مرة ثم عزم على فعله متى قدر عليه فهو مصر على المعصية ومعاقب على هذه النية وإن لم يعد إلى عمله.

◀ بعض أعمال القلوب:

◀ **النية:** وهي بمعنى الإرادة والقصد، ولا يصح العمل ولا يقبل إلا بها، قال ﷺ: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَا نَوَى » متفق عليه، وقال ابن المبارك رحمه الله: رب عمل صغير تكثّره النية ورب عمل كبير تصغّره النية، وقال الفضيل رحمه الله: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك، فإن كان العمل لله؛ سُمِّيَ إخلاصاً؛ وهو أن يكون العمل لله لا نصيب لغيره فيه، وإن كان العمل لغير الله؛ سُمِّيَ رياءً أو نفاقاً أو غير ذلك.

فائدة: الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعلم النية، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق إيمان هباء.

والأعمال ثلاثة أنواع: ١) معاصي: فالنية الحسنة في المعصية لا تقلبها طاعة بالقصد الحسن بل إذا أُضيف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها. **٢) مباحات** فما من شيء من المباحات إلا وفيه نية أو نيات، ويمكن لو أراد أن يكون قربات. **٣) طاعات:** وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها ومضاعفة أجرها[١]، فإن نوى الرياء صارت معصية وشركاً أصغراً وقد يصل إلى الأكبر؛ وهو على ثلاثة أوجه: **١)** أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل فهذا شرك والعبادة باطلة. **٢)** أن يكون العمل لله ثم دخلت

---

١) قال ﷺ: « فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » متفق عليه. وقال ﷺ: « مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ**، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا وَلا مَالاً فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**» الترمذي. فقول الثاني والرابع في الحديث أُوتي به بالمستطاع وهو النية مع التمني وظهر ذلك بقولهما: « لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ » فأُلحق كلُ واحدٍ بصاحبه في الأجر أو الوزر. قال ابن رجب: قوله في الحديث: « فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ » يدل على استوائهما في أصل أجر العمل دون مضاعفته فالمضاعفة يختص بها من عمل العمل دون من نواه ولم يعمله فإنهما لو استويا من كل وجه لكتب لمن هم بحسنة ولم يعملها عشر حسنات وهو خلاف النصوص كلها.

عليه نية الرياء فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها على أولها كالصدقة ؛ فأولها صحيح ، وآخرها باطل. وإن كان ينبني آخرها على أولها كالصلاة فهي على حالين : **أ)** أن يدافع الرياء : فإنه لا يؤثر على العمل. **ب)** أن يطمئن إلى الرياء : فإن العبادة تبطل جميعها. **٣)** أن يكون الرياء بعد العمل : فهذه وساوس لا أثر لها على العمل ولا على العامل ، وهناك أبواب للرياء خفية فيجب معرفتها والحذر منها.

أما إن كان قصده من العمل الصالح دنيا يصيبها ؛ فإن أجره أو إثمه على قدر نيته وهو على ثلاثة أحوال :

١) أن يكون الدافع للعمل الصالح الدنيا فقط ؛ كمن يؤم الناس في الصلاة لأخذ المال فهو مأزور آثم ، قال ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أبو داود. أي : ريحها. **٢)** أن يعمل لوجه الله ولأجل الدنيا ؛ فإنه ناقص الإيمان والإخلاص كمن يحج للتجارة والحج فأجره على قدر إخلاصه. **٣)** أن يعمل لله وحده ولكنه يأخذ جُعلاً يستعين به على العمل فأجره كامل لا ينقص بما يأخذ قال ﷺ : « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ » البخاري.

وأعلم بأن العاملين المخلصين على درجات : ١) دُنيا : وهي أن يعمل الطاعة رجاءً للثواب أو خوفاً من العقاب. **٢) ووسطى :** أن يعمل الطاعة شكراً لله واستجابة لأمره. **٣) وعُليا :** أن يعمل الطاعة محبة وتعظيما وإجلالاً ومهابة لله ﷻ ، وهي مرتبة الصديقين [١] .

التوبة : واجبة على الدوام ، والوقوع في الذنب من طبع الإنسان ، قال ﷺ : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » الترمذي ، وقال ﷺ : « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » مسلم ، وتأخير التوبة والإصرار على الذنب خطأ ، والشيطان يريد أن يظفر من الإنسان بعقبة من سبع عقبات ، إذا عجز عن واحدة انتقل لما بعدها ، وهي : **١)** عقبة الشرك والكفر. **٢)** فإن لم يستطع فبالبدعة في الاعتقاد وترك الاقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه. **٣)** فإن لم يستطع فبعمل الكبائر. **٤)** فإن لم يستطع فبارتكاب الصغائر. **٥)** فإن لم يستطع فبالإكثار من المباحات. **٦)** فإن لم يستطع فبالطاعات التي غيرها أفضل منها وأعظم أجرًا. **٧)** فإن لم يستطع فبتسليط شياطين الجن والإنس.

والمعاصي أقسام : ١) كبائر : وهي ما وَرَدَ فيه حدٌّ في الدنيا ، أو وعيد في الآخرة ، أو غضب ، أو لعنة أو نفي إيمان. **٢) صغائر :** وهي ما دونَ ذلك. وهناك أسباب تحول الصغائر إلى كبائر أهمها : الإصرار على الصغائر ، أو تكرارها ، أو احتقارها ، أو الافتخار بالظفر بها ، أو المجاهرة بفعلها.

والتوبة تصح من كل الذنوب ، وهي باقية حتى تطلع الشمس من مغربها ، أو تغرغر الروح في سَكَرَاتِ الموت ، وجزاء التائب إن صَدَقَ في توبته أن تُبَدَّل سيئاته حسنات وإن بلغت عَنان السماء كثرة.

ولقبول التوبة شروط هي : ١) الإقلاع عن الذنب. **٢)** الندم على ما مضَى منه. **٣)** العزم المؤكد على ألاّ يعَودَ للذنب في المستقبل ، وإذا كان الذنب متعلقاً بحقوق الخلق فلا بدّ من رد المظالم لأهلها [٢] .

---

١) قال ﷻ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ فموسى حرص على المبادرة في لقاء الله ليَرْضَى الله عنه وليس فقط استجابة لأمره ، ومثله بر الوالدين **المرتبة الدنيا** أن تبرهما خوفاً من عقوبة العقوق وطلباً لأجر البر ، **والوسطى** أن تبرهما طاعة لله وردا لجميلهما عليك بأن ربياك صغيراً ، وكانا سبب وجودك في الدنيا ، **وعُليا** أن تبرهما تعظيماً لأمر الله لك بالبر وحبا وإجلالاً له ﷻ.

٢) روي أنه ﷺ قال : « الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ثَلاثَةٌ : دِيوَانٌ لا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا ، وَدِيوَانٌ لا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَدِيوَانٌ لا يَغْفِرُهُ اللَّهُ. فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ اللَّهُ ، فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ ، قال اللَّهُ ﷻ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا ، فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ... فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا ، فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضا ، الْقِصَاصُ لا مَحَالَةَ ». أحمد وفيه ضعف .

والناس في التوبة أربع طبقات: ١) تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ولا يحدِّث نفسه بالعودة إلى ذنبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات. وتسمى هذه التوبة: النصوح، وهذه هي **النفس المطمئنة. ٢)** تائب استقام في أمهات الطاعات، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلى بها من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي **النفس اللوامة. ٣)** أن يتوب ويستقيم مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتَرَكَ جُملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة أو شهوتان، فإذا انتهت ندم، لكنه يَعِدُ نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه هي **النفس المسؤولة**، وعاقبته خطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يموت قبل التوبة، فإن الأعمال بالخواتيم. **٤)** أن يتوب ويستقيم مدة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، وهذه هي **النفس الأمارة بالسوء**، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

الصدق: هو أصل أعمال القلوب كلها ولفظ الصدق يستعمل في ستة معان: **١)** صدق في القول. **٢)** صدق في الإرادة والقصد (الإخلاص). **٣)** صدق في العزم. **٤)** صدق في الوفاء بالعزم. **٥)** صدق في العمل بأن يوافق ظاهره باطنه؛ كالخشوع في الصلاة. **٦)** صدق في تحقيق مقامات الدين كلها، وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر أعمال القلوب. فمن اتصف بالصدق في جميع ما ذكر فهو صديق لأنه مبالغٌ في الصدق قال ﷺ: « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا » متفق عليه. ومن التبس عليه الحق فصَدَقَ الله في طلبه دون هوى في نفسه؛ وُفِّقَ إليه غالباً، فإن لم يُصبه عَذَره الله.

وضد الصدق الكذب وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد أعمالها؛ كما أفسد على اللسان أقواله فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد.

المحبة: بمحبة الله ورسوله والمؤمنين تُنال حلاوة الإيمان، قال ﷺ: « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ وَجَدَ بهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: أَنْ يَكُوْنَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ » متفق عليه. فإذا غرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة النبي ﷺ أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، وهي أربعة أنواع: **١)** محبة الله؛ وهي أصل الإيمان. **٢)** المحبة في الله والبغض في الله وهي واجبة[1]. **٣)** محبة مع الله؛ وهي إشراك غير الله في المحبة الواجبة، كمحبة المشركين لآلهتهم وهي أصل الشرك. **٤)** محبة طبيعية؛ كمحبة الوالدين والأولاد والطعام... وهي جائزة. وليحبك الله ازهد في الدنيا قال ﷺ: « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يحبكَ اللهُ » ابن ماجه.

---

١) والناس من حيث المحبة أو البغض (الولاء والبراء) ثلاثة أقسام: **أ)** من يحب محبة خالصة لا بغض معها وهم المؤمنون الخُلَّص كالأنبياء والصديقين وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ وزوجاته وبناته وأصحابه. **ب)** من يبغض مطلقًا وهم الكفار والمشركون والمنافقون. **ج)** من يحب من وجه ويبغض من وجه آخر وهم عصاة المؤمنين؛ فيُحب لما عنده من إيمان، ويبغض لما عنده من معاصٍ. ومحبة الكفار وموالاتهم على نوعين: **١)** ما يوجب الردة والخروج من الإسلام، وهي موالاتهم لدينهم. **٢)** ما يكون محرماً ولكن لا يخرج من الملة؛ وهي موالاتهم لأمور دنياهم. ويقع خلطٌ ولبسٌ أحيانًا بين حسن معاملة الكفار (غير الحربيّين)، وبين بغضهم والبراءة منهم، ويتعيّن التفريق بينهما، فالعدل معهم وحسن معاملتهم من غير مودة باطنية كالرفق بضعيفهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف بهم والرحمة جائزٌ وقد قال الله فيه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ وأما بغضهم وعداوتهم فأمرٌ آخر أمر الله به بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ فيمكن العدل في معاملتهم مع بغضهم وعدم مودّتهم كفعله ﷺ مع يهود المدينة.

التوكل: وهو تفويض القلب واعتماده على الله في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة بالله وفعل الأسباب المشروعة. فترك تفويض القلب طعن في التوحيد، وترك الأسباب عجزٌ ونقص في العقل، ومحله قبل الفعل، وهو ثمرة اليقين، وأنواعه ثلاثة: **١)** واجب: وهو التوكل على الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كشفاء المرضى. **٢)** محرم: وهو على نوعين: **أ)** شرك أكبر، وهو الاعتماد الكلي على الأسباب، وأنها تؤثر استقلالاً في جلب المنفعة أو دفع المضرّة[١]. **ب)** شرك أصغر، كالاعتماد على شخص في الرزق، من غير اعتقاد استقلاليته في التأثير، لكن التعلق به فوق اعتقاد أنه مجرد سبب. **٣)** جائز: وهو أن يُوكِّلَ الإنسان غيره ويعتمد عليه في فعل يقدر عليه كالبيع والشراء. ولكن لا يجوز أن يقول: توكلت على الله ثم عليك، بل يقول: وكّلتك.

الشكر: **ظهور أثر النعم الإلهية** على العبد في قلبه إيماناً وفي لسانه حمداً وفي جوارحه عبادة. وهو مراد لنفسه والصبر وسيلة لغيره، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، ومعنى الشكر أن تستعمل النعمة في طاعة الله.

الصبر: **وهو ترك الشكوى لغير الله ـ من ألم البلوى ـ وصرفها إلى الله.** قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال: ﷺ: « وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصبّرهُ اللهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيرٌ وأوسعُ من الصَّبْر » متفق عليه. وقال عمر رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم، إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

والصبر درجات: دُنيا: وهي ترك الشكوى مع الكراهة. **ووسطى:** وهي ترك الشكوى مع الرضا. **وعُليا:** وهي حَمْدُ الله على البلاء. ومن ظُلِمَ فَدَعَا على ظالمه؛ فقد انتصر لنفسه وأخذ حقه ولم يصبر.

والصبر ضربان: ١) بدني: وهو غير مرادنا هنا. **٢) نفساني** على مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى[٢].

وجميع ما يَلْقَى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين: أ) ما يوافق الهوى فيحتاج إلى صبر في أداء حق الله فيها من الشكر وعدم صرف شيء منها في معصية الله. **ب) المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام: ١) صبر على طاعة الله: والواجب** منه فعل الفرض، **والمستحب** منه فعل النافلة. **٢) صبر عن معصية الله: والواجب** منه ترك المحرم، **والمستحب** منه ترك المكروه. **٣) الصبر على أقدار الله: والواجب** منه حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن الاعتراض والتسخط على قدر الله، وحبس الجوارح عن التصرف في غير ما يرضي الله من النياحة وشق الجيوب ولطم الخدود وغير ذلك. **والمستحب** منه الرضا القلبي بما قدر الله.

أيهما أفضل غنيٌ شاكر أم فقير صابر؟ إذا صرف الغني ماله في طاعة أو ادخره لذلك؛ فهو أفضل من

---

١) هل يتناقض فعل الأسباب مع التوكل؟ له أوجه: ١) جلب نفع مفقود: وهو ثلاثة أقسام: **أ) سبب متيقن** كالنكاح لطلب الولد، فترك فعل هذا السبب جنون وليس من التوكل في شيء. **ب) أسباب ليست متيقنة:** لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. كالمسافر في صحراء من غير زاد، ففعله ليس من التوكل، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة. **ج) أسباب يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة:** كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في طلب الاكتساب ووجوهه، فإنه لا يخرج عن التوكل، بل ترك التكسب ليس من التوكل في شيء. قال عمر رضي الله عنه: المتوكل الذي يلقى حبه في الأرض ويتوكل على الله. **٢) حفظ موجود:** فمن وجد قوتاً حلالاً فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة فأن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم. متفق عليه. **٣) دفع ضرر لم ينزل:** ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، كلبس الدرع، وشد البعير بالعقال. ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضيا بكل ما يقضى الله عليه. **٤) إزالة ضرر قد نزل:** وهو ثلاثة أقسام: **أ) أن يكون مقطوع به:** كالماء المزيل للعطش، فهذا تركه ليس من التوكل في شيء. **ب) أن يكون مظنوناً:** كالحجامة ونحوها ففعلها لا يناقض التوكل، فإن الرسول ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوي. **ج) أن يكون السبب موهوماً:** كالكي زمن العافية لئلا يمرض؛ ففعلها ينافي كمال التوكل.

٢) وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي: عفة، وإن كان في قتال سمي: شجاعة، وإن كان في كظم غيظ سمي: حلماً، وإن كان في إخفاء أمر سمي: كتمان سر، وإن كان في فضول عيش سمي: زهداً، وإن كان على قَدْرٍ يسير من حظوظ الدنيا سمي: قناعة.

الفقير وإن كان أكثر صرفه في مباح فالفقير أفضل. قال ﷺ: « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بمنزلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ» أحمد.

◀ **الرضا: وهو القناعة بالشيء والاكتفاء به**، ومحله بعد حصول الفعل، والرضا بقضاء الله من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة والتوكل، ودعاء الله أن يزيل المكروه لا يناقض الرضا به.

◀ **الخشوع: هو التعظيم والانكسار والذل**، قال حذيفة: إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع، وقال حذيفة ﷺ: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وأي عبادة يشرع فيها الخشوع فإن الأجر عليها بقدر الخشوع فيها؛ كالصلاة، فإن النبي قال عن المصلي ليس له من صلاته إلا نصفها ربعها خمسها ...عشرها، بل قد لا يكون له من صلاته شيء لعدم وجود الخشوع تماماً.

◀ **الرجاء: وهو النظر إلى سعة رحمة الله**، وضده اليأس، والعمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأنه يورث حسن الظن بالله، والله يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي» مسلم. **وهو درجتان: عُليا:** من عمل طاعة ويرجو ثواب الله؛ قالت عائشة ﷺ: يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الترمذي. **دنيا:** المذنب التائب يرجو مغفرة الله. أما العاصي المصر التارك للتوبة ويرجو رحمة الله، فهذا تمني وليس رجاء، وهذا النوع مذموم والأول محمود، فالمؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً.

◀ **الخوف: هو غمّ يلحق النفس لتوقع مكروه**، فإن تُيقن المكروه سمي خشية، وضده الأمن، وهو ليس بضد للرجاء بل هو باعث بطريق الرهبة، والرجاء باعث بطريق الرغبة، ولا بد من الجمع بين المحبة والخوف والرجاء، قال ابن القيم: القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فإذا سكن الخوفُ القلبَ أحرقَ مواضعَ الشهوات منها، وطَرَدَ الدنيا عنها. **والخوف الواجب:** هو ما حمل على فعل الواجبات، وترك المحرمات. **والخوف المستحب:** هو ما حمل على فعل المستحبات، وترك المكروهات. وهو أنواع: **١)** خوف السر والتأله ويجب أن يكون لله وحده، وصرف شيء منه لغير الله شرك أكبر كالخوف من آلهة المشركين أن تضر أو تصيب بمكروه. **٢)** محرم وهو ترك واجب أو فعل محرم خوفاً من الناس. **٣)** جائز: كالخوف الطبيعي من الذئب وغيره.

◀ **الزهد: هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه**، والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن. وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها سبب كل طاعة، والزهد في الدنيا بأن تخرجها من قلبك، لا أن تخرجها من يدك مع تعلق قلبك بها ـ وهو زهد الجهال ـ قال ﷺ: « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ » أحمد. **وللفقير مع المال خمسة أحوال: ١)** أن يهرب من أخذ المال بغضاً له واحترازاً من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً. **٢)** أن لا يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً. **٣)** أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أخذه وفرح به، وإن احتاج إلى تعب في طلبه لم يشتغل به؛ وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً. **٤)** أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، ولو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى حريص. **٥)** أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال، كالجائع، والعاري الفاقد للمأكول والملبوس، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً.